

## خطاب «الوحدانية» في عصرنا...! هل سيسلم العالم؟

محمد عابد الجابري

مفكر عربي من المغرب.

- ١ -

يبدو أن عصرنا يتميز بطابع فريد لم يشهده التاريخ من قبل، طابع يمكن وصفه أو تسميته بـ«الوحدانية». فمنذ انهيار الاتحاد السوفيتي الذي كان «يتقاسم» العالم مع العسكر الرأسمالي الغربي، حلت «الوحدانية» محل التعدد، ليس فقط على مستوى الصراع بين «الشرق» و«الغرب»، بل أيضاً على مستوى كل منها، ذلك أنه لا العسكر الشيوعي ولا العسكر الرأسمالي كان واحداً موحداً، بل لقد كان كل منها متعددًا: كان كل منها عبارة عن تحالف بين أطراف يجمع بينها «العداء» للمعسكر الآخر، ولكن مع الاختلاف حول الدوافع والأهداف وطريقة خوض الصراع والحدود التي يجب أن يقف عنها. وأكثر من ذلك، كان هناك داخل كل معسكر صراع يزداد مع الأيام نمواً واستفحalaً: فداخل الكتلة الشيوعية كان الاتحاد السوفيتي شيئاً، وكانت الصين شيئاً آخر... وداخل العسكر الرأسمالي الغربي كانت الولايات المتحدة شيئاً، وكانت الأقطار الأوروبية شيئاً آخر: كانت الولايات المتحدة تقاتل بمفردها في كوريا الجنوبية وفي فيتنام وفي أمريكا الجنوبية... الخ، وكانت فرنسا تقاتل بمفردها في الهند الصينية، ثم في المغرب العربي... الخ. وكان موقف الولايات المتحدة من الصراع العربي - الإسرائيلي يختلف - على الأقل من حين إلى آخر - عن موقف كل من فرنسا وبريطانيا اللتين لم تكونا دائمًا على خط واحد، لا في هذا الصراع ولا في غيره من الصراعات الدولية...

وعندما انهار الاتحاد السوفيتي تطورت الأمور عكس ما كان متوقعاً، على الأقل على مستوى المنطق! ذلك أن اندحار العدو المشترك ينتج منه عادة انحلال عرى التضامن والتحالف، وانتشار التعدد واستفحال الخلاف، في الطرف الذي كان يصارعه. ولكن الذي حدث هو العكس! لقد دخل الجميع تحت «جلباب العم سام». وهكذا فـ«القطب الواحد» الذي كان من المتوقع أن يكون متعددًا أكثر من ذي قبل، أصبحت «الوحدة» فيه «وحدانية»! لم يعد فيه «رأي» يراعي «رأي الآخر»، بل أصبح «رأي الأمريكي» يمثل

«الرأي الوحيد»، وذلك إلى درجة أن الرئيس بوش الحالي لم يتردد في رفع شعار: «من ليس معنا فهو ضدنا»؟

واتسع نطاق هذه «الوحданية» لتفرض نفسها على الخطاب السياسي المعاصر بأكمله، وفي كل مجال. وفي ما يلي أمثلة:

- فعبارة «هيئـة الـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ» التي كانت تـحتـلـ حـيـزاـ مـهـماـ فيـ الخطـابـ العـالـمـيـ، وبالـتـالـيـ تحـظـىـ بـنـوـعـ مـنـ الـاعـتـبـارـ، حـلـتـ مـحلـهاـ عـبـارـةـ «ـالـجـمـعـ الدـولـيـ»ـ، وـكـانـ أـمـمـ الـأـرـضـ قدـ اـتـحـدـتـ وـكـوـنـتـ «ـمـجـتمـعـاـ»ـ وـاحـدـاـ أوـ «ـجـمـاعـةـ»ـ وـاحـدـةـ!ـ لـقـدـ أـصـبـحـتـ «ـهـيـئـةـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ»ـ الـيـوـمـ أـشـبـهـ مـاـ تـكـوـنـ بـقـطـارـ قـدـيـمـ مـرـأـبـ الـعـربـاتـ الـقـدـيمـةـ الـتـيـ تـرـكـ لـلـصـدـأـ يـنـخـرـ كـيـانـهــ.ـ لـقـدـ تـرـكـ مـكـانـهــ لـ«ـقـطـارـ»ـ جـدـيـدـ اـسـمـهـ «ـالـجـمـعـ الدـولـيـ»ـ (ـمـفـرـدـ)، بـيـنـمـاـ «ـأـمـمـ»ـ جـمـعـ).ـ وـالـفـرـقـ مـنـ النـاـحـيـةـ السـيـاسـيـةـ وـاضـحـ:ـ «ـأـمـمـ»ـ تـضـمـ مـجمـوعـةـ مـنـ الـدـوـلـ وـالـحـكـومـاتـ،ـ وـلـاـ يـتـصـورـ وـجـودـ أـمـمـ عـلـيـهـاـ حـكـومـةـ وـاحـدـةـ،ـ وـبـخـاصـةـ فـيـ الـخـطـابـ السـيـاسـيـ الـغـرـبـيـ الـذـيـ يـقـرـنـ فـيـهـ اـسـمـ الـأـمـمـ بـالـدـوـلـةـ (ـالـدـوـلـةـ/ـالـأـمـمـ)ـ (ـEـt~at-N~ationـ).ـ اـمـاـ «ـالـجـمـعـ»ـ فـهـوـ يـحـتـمـلـ دـوـلـةـ وـاحـدـةـ بـلـغـ التـعـدـدـ فـيـهـ ماـ بـلـغـ (ـكـالـهـنـدـ مـثـلـ).ـ «ـالـجـمـعـ الدـولـيـ»ـ عـبـارـةـ تـوـحـيـ بـوـجـودـ دـوـلـةـ وـاحـدـةـ عـلـىـ رـأـسـهـ،ـ وـتـحـيلـ عـلـيـهـاـ.ـ اـمـاـ اـسـمـهـ فـمـعـرـوفـ:ـ إـنـهـ «ـالـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ»ـ،ـ الـتـيـ أـصـبـحـ اـسـمـهـ يـنـطـقـ مـنـ دـوـنـ إـضـافـةـ لـفـظـ «ـأـمـريـكـيـةـ»ـ،ـ لـيـترـكـ الـمـجـالـ لـلـفـظـ آـخـرـ لـاـ يـنـطـقـ وـلـكـنـ يـفـهـمـ:ـ لـفـظـ «ـالـدـولـيـةـ»ـ،ـ فـتـصـبـحـ عـبـارـةـ الـمـخـفـيـةـ هـكـذـاـ.ـ «ـالـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ الـدـولـيـةـ»ـ رـئـيـسـةـ «ـالـجـمـعـ الدـولـيـ»ـ.

- ليس هذا مجرد لعب بالألفاظ، بل إنه التعبير الصريح عن الحقيقة الملموسة، عن الواقع القائم الآن. يكفي للبرهنة على ذلك برهنة وجودية أن نشير إلى أنه في أيامنا هذه كثيراً - بل غالباً إن لم يكن دائماً - ما يحدث أن تصوت «الأغلبية الساحقة» في هيئـةـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ لـفـائـذـ قـرـارـ ماـ،ـ وـلـكـنـ يـكـفـيـ أـنـ تـعـتـرـضـ عـلـيـهـ الإـدـارـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ ليـقـالـ إنـ «ـالـجـمـعـ الدـولـيـ»ـ يـرـفـضـ ذـلـكـ!ـ لـقـدـ كـانـ مـاـ يـلـفـتـ النـظـرـ فـيـ «ـهـيـئـةـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ»ـ،ـ قـبـلـ عـقـدـ مـنـ السـنـينـ،ـ هوـ اـرـتـفـاعـ عـدـدـ الـدـوـلـ الـأـعـضـاءـ فـيـهـاـ بـاـنـضـمـاـنـ الـدـوـلـ الـمـسـتـقـلـةـ حـدـيثـاـ،ـ وـلـكـنـ إـلـىـ درـجـةـ أـنـ كـثـيرـاـ مـنـ الـمـحـلـلـيـنـ الـإـسـتـرـاتـيـجـيـيـنـ لـمـ يـتـرـدـدـواـ آـنـذـاكـ فـيـ القـوـلـ إـنـ السـيـاسـةـ الـعـالـمـيـةـ سـتـصـبـحـ فـيـ أـيـديـ «ـالـدـوـلـ الـسـائـرـةـ فـيـ طـرـيقـ النـمـوـ»ـ،ـ لـكـونـهـاـ أـكـثـرـ عـدـدـاـ فـيـ «ـهـيـئـةـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ»ـ.ـ أـمـاـ مـاـ نـرـاهـ الـيـوـمـ فـهـوـ أـنـ هـذـهـ الـكـثـرـةـ مـنـ «ـالـدـوـلـ الـسـائـرـةـ فـيـ طـرـيقـ النـمـوـ»ـ قدـ أـصـبـحـ أـصـفـارـاـ عـلـىـ يـسـارـ العـدـدـ «ـوـاحـدـ».ـ أـمـاـ بـقـيـةـ الـدـوـلـ،ـ وـأـعـنـيـ الـدـوـلـ الـنـامـيـةـ الـمـتـقـدـمـةـ الـمـصـنـعـةـ،ـ سـوـاءـ كـانـتـ مـنـ الـشـرـقـ أـوـ مـنـ الـغـرـبـ،ـ فـهـيـ فـعـلـاـ عـلـىـ يـمـينـ العـدـدـ «ـوـاحـدـ»ـ،ـ وـلـكـنـ بـعـدـ الـفـاـصـلـةـ.ـ إـنـهـ مـجـرـدـ كـسـورـ عـشـرـيـةـ لـلـوـاحـدـ الـأـحـدـ.

- وأـمـاـ «ـمـجـلـسـ الـأـمـنـ الدـولـيـ»ـ الـذـيـ كـرـسـ التـعـدـدـ فـيـ كـيـانـهـ مـنـذـ تـأـسـيـسـهـ،ـ بـالـاعـتـرـافـ بـحـقـ النـقـضـ -ـ لـلـأـرـبـعـةـ الـكـبـارـ عـلـىـ الـأـقـلـ -ـ فـقـدـ صـارـ الـكـلـامـ عـنـهـ بـعـبـارـةـ «ـمـجـلـسـ الـأـمـنـ»ـ فـقـطـ.ـ إـنـ إـسـقـاطـ لـفـظـ «ـالـدـولـيـ»ـ،ـ فـيـ عـبـارـةـ «ـمـجـلـسـ الـأـمـنـ الدـولـيـ»ـ،ـ يـفـسـحـ الـمـجـالـ لـلـفـظـ «ـالـقـومـيـ»ـ فـيـ عـبـارـةـ «ـمـجـلـسـ الـأـمـنـ الـقـومـيـ»ـ (ـالـأـمـرـيـكـيـ)ـ؛ـ وـهـكـذـاـ فـحـذـفـ «ـالـدـولـيـ»ـ مـنـ الـأـوـلـىـ هوـ مـنـ أـجـلـ «ـالـقـومـيـ»ـ (ـالـأـمـرـيـكـيـ)ـ فـيـ الـثـانـيـةـ.ـ وـالـأـمـنـ الدـولـيـ وـالـأـمـنـ الـقـومـيـ (ـالـأـمـرـيـكـيـ)ـ فـيـ هـذـهـ الـحـالـةـ،ـ يـتـمـاهـيـانـ،ـ أـعـنـيـ أـنـهـمـاـ يـقـدـمـانـ بـوـصـفـهـمـاـ يـحـلـانـ عـلـىـ مـاهـيـةـ وـاحـدـةـ!

- وـبـمـاـ أـنـ الـأـلـفـاظـ وـالـعـبـارـاتـ يـسـتـدـعـيـ بـعـضـهـ بـعـضـاـ،ـ فـلـنـفـسـحـ الـمـجـالـ لـعـبـارـةـ «ـالـمـصالـحـ الـقـومـيـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ فـيـ الـعـالـمـ»ـ الـتـيـ يـرـعـاهـاـ «ـمـجـلـسـ الـأـمـنـ»ـ،ـ فـيـ مـعـنـاهـ الـأـحـادـيـ الـآخـرـ.

العبارة في ذاتها تحمل تناقضًا، ذلك أن «المصالح القومية» في معناها اللغوي، «مصالح وطنية»، أي مصالح تخص الوطن. ولكل وطن مصالحة. أما عبارة «مصالح وطنية في العالم»، فهي عبارة عدوانية لأنها تنطلق من كون العالم عبارة عن فضاء خال من الأوطان. والحروب في تاريخ البشرية كانت كلها تقريبًا بسبب هذا النوع من العدوانية التي كان يطلق عليها قبل عقد من السنين لفظ «الإمبريالية»، وقد أبعد هو الآخر من قاموس الخطاب السياسي المعاصر، تماماً كما أبعدت عبارة «ما وراء البحار»، التي كانت توظف في المعنى نفسه: كانت الدول الاستعمارية في القرن التاسع عشر (فرنسا وإنجلترا بخاصة) تتحدث عن «مصالح... فيما وراء البحار»، وباسم هذه «المصالح» خاضتا حروبهما الاستعمارية. ومع ذلك لا بد من إبراز الفرق بين العبارة التي تستعملها الإدارة الأمريكية (أعني «المصالح القومية» في العالم) والعبارة التي كانت تستعملها الدول الاستعمارية في القرنين التاسع عشر والعشرين. كانت فرنسا تتحدث عن «المصالح الفرنسية فيما وراء البحار»، وكانت إنجلترا تتحدث عن «مصالح المملكة المتحدة في ما وراء البحار» وهكذا. وإذا لم تخني ذاكرتي، فلم تستعمل أي منها عبارة «المصالح القومية فيما وراء البحار»، وإذا استعملت هذه العبارة في وقت ما فذلك لم يكن القاعدة، كما هو الشأن اليوم بالنسبة إلى عبارة «المصالح القومية الأمريكية في العالم»!.

- ومن الألفاظ التي تحتل الصدارة اليوم، في قاموس الخطاب السياسي الأحادي السائد، لفظ «الإرهاب»! لقد تمت «عزلة» هذا اللفظ، ليس فقط من خلال نشره وتعيمه كسلعة خطابية (بكسر الخاء) عبر العالم، كما هو شأن أكلة «ماكدونالد» مثلاً، بل أيضاً من خلال تحويل العالم بأسره إلى فضاء لظاهرة واحدة: الإرهاب. وهذا مفهوم. فالطرف الذي يتحدث عن «مصالح قومية» في العالم وعن ضرورة حمايتها لا يمكن أن ينشر شيئاً آخر غير الإرهاب، إرهاب مضاعف: إن عبارة «المصالح القومية في العالم» عبارة عدوانية كما قلنا، وبالتالي فاستعمالها واتخاذها كشعار يرهب العالم كله: أمما ودولاً وشعوبًا. فـ«المصالح في العالم» لا تتصور إلا على حساب مصالح بلدان العالم، وبالتالي لا يستقيم أمرها إلا بحمايتها: إما بالتهديد، وإما بـ«الاحتواء»، وإما بـ«الضربات الرادعة»... الخ، وكلها إرهاب! إرهاب يحمي الإرهاب.

## - ٢ -

الإرهاب بهذا المعنى يلغى نقشه الذي هو «المقاومة». وكما هو معلوم ومفهوم في جميع اللغات، يدل لفظ «الإرهاب» على فعل، فعل الإرهاب، كما يدل «الضرب» على فعل الضرب. هذا بينما يدل لفظ «المقاومة» على «رد الفعل». فالمقاومة لا تتصور إلا كرد فعل دفاعي ضد العداون، ضد الظلم، ضد الاحتلال... الخ. أجل، يشتراك الإرهاب والمقاومة في أن كلاً منهما يمارس العنف بشكل ما. غير أن ممارسة العنف في حال الإرهاب تكون ابتداء، أما في حال المقاومة فالعنف هو رد العنف، هو شيء مشروع، إنه دفاع عن النفس، رد للظلم.

هذا التمييز بين الإرهاب والمقاومة يرفضه «الرأي الوحيد» السائد. ومن الطبيعي أن يرفضه لأنه إنما يمارس وحدانية الرأي باللجوء إلى الإرهاب. لقد قامت محاولات عديدة على مستوى المؤسسات الدولية تدعو إلى التمييز بين الإرهاب والمقاومة، فكان رد

فعل «الرأي الوحيد» أن هذا نوع من التزكية للإرهاـب! وقامت أصوات عديدة تنادي بضرورة وضع تعريف لـ«الإرهاـب»، فكان رد فعل الرأي الوحيد أن «الإرهاـب هو الإرهاـب» بناء على: «كل من ليس معنا فهو إرهاـب».

\* \* \*

وبعد فأوجه الشبه بين مفهوم الإرهاـب عند كل من الإدارة الأمريكية الحالية وحكومة إسرائيل الحالية لا تحسـى ولا تحتاج إلى عـد... لنقتصر فقط على وجه شـبه واحد:

شارون يريد أن يقضي على «الإرهاـب» باقتحام الضـفة والقطاع بدباباته وجندـوه، مقتـنـاً معتـلـاً محـرـقاً مـهـمـاً مـخـرـباً... ولكن هل نجـح بـحملـ الشـعـبـ الـفـلـسـطـينـيـ عـلـىـ الاستـسـلاـمـ؟ إـنـهـ حـتـىـ لـوـ القـىـ جـمـيعـ قـنـابـلـ الذـرـيةـ عـلـىـ الـفـلـسـطـينـيـنـ، فـإـنـ الـذـيـنـ سـيـقـوـنـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاةـ، مـرـضـىـ أوـ مشـوـهـيـنـ أوـ أـصـحـاءـ، سـيـتـابـعـونـ الـانـقـاضـةـ أوـ يـسـتـأـنـفـونـهاـ... هـذـاـ لـاـ شـكـ فـيـهـ!

فهل ستتجـعـ الحربـ عـلـىـ «الإرهاـبـ» فيـ جـمـيعـ أـنـحـاءـ الـعـمـورـ؟ أـكـيدـ أـنـ الـطـرـفـ الـذـيـ يـخـوضـ هـذـهـ الـحـربـ لـدـيـهـ مـنـ القـنـابـلـ الذـرـيةـ مـاـ سـيـمـكـنـهـ مـنـ أـنـ يـفـعـلـ فيـ أـقـطـارـ الـعـالـمـ مـاـ يـمـكـنـ لـإـسـرـائـيلـ أـنـ تـفـعـلـهـ فـيـ مـدـنـ وـقـرـىـ فـلـسـطـينـ. ولكنـ هـلـ سـيـسـتـلـمـ الـعـالـمـ؟ □

**صدر حديثاً**

**ثورة ٢٣ يوليوج**  
**حصيلة و دروس**

**ندوة**

هو حصيلة وقائع ندوة عقدها المركز  
بمناسبة مرور نصف قرن على قيام الثورة.  
وقد شارك فيها مجموعة من المفكرين  
والممارسين والمعنيين بالحدث.

ويتضمن الكتاب تقويمـاً لثـورـةـ ٢٣ـ يولـيوـ  
من مختلف جوانـبـهاـ. وقدـ وفرـ المـرـكـزـ  
لـلـمـشـارـكـيـنـ فـيـ النـقـاشـ حرـيـةـ التـعـبـيرـ عـنـ  
الـرـأـيـ مـنـ دونـ قـيـودـ، وـقـدـ اـخـتـارـ المـرـكـزـ أـنـ  
يـنـشـرـ بـأـمـانـةـ آـرـاءـ جـمـيعـ الـمـشـارـكـيـنـ مـنـ دونـ  
تـحـفـظـ إـلـاـ مـاـ أـبـدـوـهـ هـمـ مـنـ تـحـفـظـ فـيـ نـشـرـ  
مـاـ لـمـ يـوـدـواـ نـشـرـهـ.

١٥٠ صـفـحةـ  
الـثـمـنـ: ٤ دـولـارـاتـ  
أـوـ مـاـ يـعـادـلـهـ